الكنيسة الشرقية

إنه لمن دواعى الاغتباط وآيات التوفيق أن تتشعب الحركة الثقافية فى الشرق الأدنى فتتناول كل يوم ناحية جديدة من الفكر الانسانى . ولما كان للأبحاث التاريخية القِدْح المعلى فيما يتوفر عليه قادة الرأى من مواضع النظر رأينا الإدلاء بكلمة عن الكنيسة الشرقية وتطورها على مر الأجيال .

تقول الكنيسة الشرقية ، وسرعان مايدفعنا الحرص على نفى اللبس أن نعرفها بأنها ليست مقصورة على كنيسة معينة من حيث العقائد والطقوس والمذاهب والادارة إلى غير ذلك من شتى العناصر الجوهرية أو الثانوية ، بل هى الكنيسة الشرقية فى أعم معانيها ، أى مجموعة الكنائس المسيحية التى نشأت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فنمت وشبت على سواحله ثم امتدت إلى العراق وفارس والحبشة ثم إلى أوربا الشرقية وحتى إلى الهند والصين . تلك الكنائس التى بقيت ، مع اختلافها فى بعض المناحى المذهبية أو مناط الإمامة الروحية ، متحدة اتحاداً تامًّا فيما يتصل بنواة العقائد المسيحية

من خصائص البحث العلمى فى القرن التاسع عشر الرجوع إلى المصادر التاريخية والعناية بدرس التيارات المذهبية فى نشأتها . ولا غرو أن الوقوف على العوامل الأولى التى تأثر بها مذهب من المذاهب الروحية وطبيعة البيئة الاجتماعية التى أسلست له قيادها ثم وسمته بعقليتها خيرُ معوان على تميز عناصره الفعالة وتحديد علاقته بما تقدمه من المذاهب التى تفرع عليها . فى رأى « تين » أن العبقرى وليد جنسه وبيئته وزمانه ليس إلا . ويزعم هيجل أن تاريخ الفكر سلسلة متصلة لتفاعل مذهبين متناقضين يأتلفان فى مذهب جامع الأضداد . وجلىّ أننا مع نبذنا ما يطبع هذه الآراء من الجبرية المتطرفة يحق علينا درس الكنيسة الشرقية فى نشأتها لنستوعب بعض خصائصها الحاضرة . وقد جلت أبحاث لفيف

من المؤرخين مثل دوشين Duchesne وهرنك Harnack وباتيفول Batiffol وفستجيير Festugière ما تميزت به هذه النشأة ؛ ونورده ملخصاً فيما يلى :

أولا أن المسيحية — أو بالأحرى المسيحية المطلقة — قد نشأت فى القدس (الجليل واليهودية) . تلك ملاحظة بليغة المعنى على سذاجتها ، فهى تنبئ عن ارتباط المسيحية بعقائد العهد القديم . فلا ننسى أن تعليم المسيح جاء مكملا لتعليم موسى وسائر الأنبياء ، وأن العهد الجديد ليس فى نظر المسيحيين إلا اكتمالا لتطور العهد القديم أو تحقيقاً لأمانيه على صورة واقعية عملية لا مجرد مثالية . كانت هناك الكتب المنزلة ، كانت النبوءات المدوية ، كانت الصلوات القائمة والطقوس الصارمة . وعاش المسيح طوال السنين فى ذلك العهد يدين بدينه ويلتزم كل فريضة من فرائضه . فالكنيسة الشرقية منذ نشأتها مشبعة بهذه الروح الشرقية التى طبعت العهد القديم بطابعها الخاص . ولا تبرح ذاكرة سلالتها معتزة بشرف نسبها .

غير أن هذا النور الذى انبلج فى الشرق قد فاض على عالم ساده نظام روما فترعرعت الكنيسة الشرقية فى محيط رومانى . سيطرت الإمبراطورية الرومانية على العالم المتحضر ولا سيما إقليمه الشرقى وفيه سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى . ولم تكن هذه البلاد الرومانية أشلاء لجسم عديم الحياة بل كانت تؤلف وحدة جغرافية اقتصادية سياسية متماسكة الأطراف . وحسبنا دليلا على انتظامها فى تلك الوحدة الحية ما بقى إلى يومنا من شبكات الطرق الرومانية التى كانت تجتاز العالم المتمدن منتهية إلى روما قلبه النابض . فلم تكن الكنيسة الشرقية منعزلة عن الغرب ، بل ظلت متصلة به أوثق اتصال توفد إليه أعلامها وتبادله بأسباب الحضارة . فقد انتشرت التجارة بين مختلف الأقطار ، وكانت الجيوش الرومانية تحتل حواضر البلاد الشرقية ، والموظفون الرومانيون يتقاطرون إليها يزودونها بالنظم الاقتصادية والسياسية . فلا عجب أن تتأثر الكنيسة الشرقية بتلك النظم وما يسمها من الحزم والدقة .

وهناك عامل آخر جدير بالاعتبار ، هو البيئة اليونانية التى درجت فيها الكنيسة الشرقية . وقد أفرد الأستاذ فستجيير Festugière فى تحليل

هذه البيئة ومقارنة روحها بالنفسية الجديدة صفحات ممتعة تجلو سر الحقبة الممتازة من تاريخ الثقافة العامة . وفى الواقع أن إسكندر الكبير ضرب بسهم وافر فى خلق روح شاملة تعلو الفروق الجنسية والنزعات القومية ، روح وئام وإخاء انتشرت فى القرون الثلاثة السابقة لعهد المسيح وسميت بالهلنية hellénisme لما يطبعها من الثقافة اليونانية . وإذا شئنا إجمال خصائصها بكلمات معدودة قلنا إن قوامها تحقيق المثل الأعلى للإنسان من حيث هو إنسان فى حمى النظام الذى تصطنعه المدينة اليونانية : ولا يخفى أن الشخص والمدينة كانا محورى الهلنية . ولا يتسع المقام هنا للإفاضة فى تحليلها . فنجتزئ بالاشارة إلى أن المسيحية على العموم والكنيسة الشرقيه على الخصوص قد تلقت هذا التراث القديم وأفرغته فى قالب جديد أو نفثت فيه روحاً جديدة هى رسالة المسيح الفائقة الطبيعة . وقد غرّ هذا الاصطباغ بالهلّنية بعض الباحثين فتوهموا أن الثقافة المسيحية مجرد طور من أطوار الثقافة اليونانية ، ولا سيما من الناحية الفلسفية . ولا يخلو هذا الحكم من تحيف لأصلية الرسالة المسيحية وتفوقها فى جوهرها على كل ما سبقها من المبادئ النظرية . غير أنه يجب الاعتراف بالأثر اليونانى فى الكنيسة الشرقية بل فى الكنيسة جمعاء . وفى الحق أن المدن التى طافها الرسل لنشر الرسالة الجديدة كانت مدناً يونانية ولغة التخاطب والفكر كانت اليونانية . وقد ظل التعبير بهذه اللغة شائعاً حتى أوائل القرن الثالث ، وكان جميع آباء الكنيسة الأولين حتى أكليمنضس الرومانى Clement de Rome يكتبون بها . فلا يغب ذلك عن ذهننا حين ننظر إلى كنيسة الإسكندرية فى القرنين الثالث والرابع بل إلى بعض الكنائس الشرقية فى أيامنا هذه وما يتخلل أدعيتها من العبارات اليونانية .

ويجمل التنويه فى هذا المقام بأمرين : أولا ، ما عانته الكنيسة الشرقية كشقيقتها الكنيسة العربية من ألوان الاضطهاد فى نشأتها الأولى إذ كانت الوثنية فى عنفوانها . ولئن تأتى للمسيحية أن تخلع الأصنام من معابدها وتبث الروح الجديد فى مجتمع يدين بأديان من طقوسها ما يندى لها الجبين فلم يتم لها هذا النصر إلا بما سفك شهداؤها من دمائهم فى كل بقعة من الإمبراطورية الرومانية . وكان للشرق فى هذا الاستشهاد نصيب مجيد : ثانياً ، أن الرسالة المسيحية لم تظهر على صورة فلسفة نظرية لايدركها إلا الخاصة من أعلام الفكر

بل كانت موجهة إلى عامة الشعب من جهلاء وبؤساء، تبعث فى قلوبهم النور مع الرجاء . ولا أدل على تأثيرها فى تلك النفوس الساذجة من رسائل القديس بولس ولا سيما رسائله إلى أهل كورنتيا .

ذلك شأن الكنيسة الشرقية من حيث نشأتها . أما نموها وانتشارها على سواحل البحر المتوسط فصفحة مجيدة من تاريخ الفكر فى الشرق الأدنى . كانت الكنيسة الشرقية حلقة الاتصال بين التعاليم المسيحية والثقافة القديمة من يونانية ولاتينية . وقد تركزت هذه الحركة الفكرية والدينية معاً فى بعض مراكز هامة، أخذ كل منها يوجه الفكر وفقاً لمزاياه الاقليمية والتاريخية . فأولى الكنائس شأنا من حيث النظر فى مضمون الوحى والرسالة المسيحية هى دون مراء كنيسة الإسكندرية . ولا غرو فقد كان للإسكندرية قبل المسيح تاريخ مجيد من الناحية الدينية نفسها ؛ إذ تلاقى فيها الوحى الإلهى والحكمة اليونانية بأعمال المثقفين من اليهود ولا سيما فيلون الإسكندرى . والواقع أن ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحها شرحا رمزيا على نمط التفاسير اليونانية القديمة مما أنهج السبيل إلى قبول المسيحية فى معشر المثقفين . وتاريخ مدرسة الاسكندرية القديمة أشهر من أن يحتاج إلى التعريف . فلا يخفى أن الإسكندرية كانت فى القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقى للثقافة العامة فى البلاد المتمدنة . أما ما يخلق بنا الاشارة إليه فهو أن الإسكندرية أصبحت أيضاً فى القرون الأولى بعد المسيح مركزا هاما للتفكير الدينى . ولا نعنى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فحسب، بل كذلك تعاليم كنيسة الإسكندرية والجامعة Didascalée التى أنشأها أكليمنضس الإسكندرى، وكان نبراسها أورجينس Origène . وقد بلغت أوج المجد فى القرنين الرابع والخامس على عهد القديس أثناسيس Athanase . وكيرلس Cyrille . فما أحرانا أن نتعمق تاريخنا الثقافى والدينى فى هذه الحقبة وهى حافلة بمفكرين، مجددين ذوى رأى وإقدام يقدرون الحق قدره ويرتضون الاضطهاد فى سبيل الدفاع عن عقائدهم مضحين بحياتهم إخلاصا لإيمانهم . فمن ذا الذى يتتبّع القديس أثناسيس مثلا فى نضاله عن العقيدة التى قررها مجمع نقية Nicée ولا يأخذه العجب .

لقد ذاع صيت الإسكندرية بشهدائها وعلمائها، وتمجدت الكنيسة المصرية

قاطبة برهبانها وأديارها . فهناك القديس أنطونيوس الشهير ، وهناك مئات بل ألوف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر كانت معينا لا ينضب للحياة الروحية الحقة . ولقد أثرت هذه الروح الدينية المصرية فى النصرانية بأسرها ؛ إذ تلقت المسيحية عمن أسمتهم « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك مازالت مثالا يحتذى . وما الأديرة القائمة فى مصر حتى الآن إلا آثار لما كانت عليه الحياة الروحية فى الكنيسة المصرية طيلة القرون الستة الأولى . وعلى الكنيسة القبطية اليوم ، وهى وريثة كنيسة الإسكندرية ، إحياء هذا المجد ورده غرة فى جبينها .

وإذا انتقلنا إلى سورية ألفينا مركزاً آخر للكنيسة الشرقية فى مدينة أنطاكية ، تلقّت كالاسكندرية التراث اليونانى بتغذيتها بالثقافة اليونانية . وقد اتخذها أباطرة الرومان مقرًّا لهم حيناً بعد حين . وفى هذه الحاضرة بدأ المسيحيون نشر دعوتهم بين الأمم غير الإسرائيلية ، وفيها لقبوا لأول مرة بلقب « أتباع المسيح » christianoi . وقد طارت شهرة أنطاكية لإقامة القديس بطرس زعيم الحواريين فيها قبل انتقاله إلى روما حيث استشهد . وامتازت أنطاكية من الجهة الفكرية بصبغتها الوضعية ؛ فكانت أشد ميلا إلى التعليم الأرسطى . فبينما كانت الاسكندرية متشربة بروح الأفلاطونية ، نازعة إلى التفسير الرمزى ، تمسكت أنطاكية بالتأويل الحرفى الأقرب إلى النص ، وأنعمت النظر فى إنسانية المسيح وميزاتها البشرية على نقيض الإسكندرية ومدرستها اللاهوتية . وهذا التباين فى الاتجاه العقلى من الأسباب التى أدت إلى الخلاف الذى نشب بين الكنيستين . وأشهر ممثل لكنيسة أنطاكية القديس يوحنا فم الذهب ، فهو أعظم خطباء القرن الرابع ؛ فقد توفر على إلقاء المواعظ طيلة حياته الأسقفية واضطهد لصراحته فى الرأى وثباته على العقيدة .

أما كنيسة أورشليم فلم تنل من الشهرة الثقافية ما نالته الاسكندرية وأنطاكية . نعم كانت أورشليم مصدر الدعوة المسيحية ، وفيها أخذ الرسل ينشرون الدعوة بين اليهود . بيد أنها لم تكن من المدن الهيلّينية الأصيلة لتمسكها بتقاليدها اليهودية ونفورها أشد النفور من كل محاولة لصبغها بصبغة يونانية . فمع ذيوع الديانة المسيحية فيها ظلت ردحا من الزمن ترنو إلى اليهودية

بشيء من العطف حتى اكتمل تطورها النفساني من حيث إخلاصها للرسالة المسيحية الصرفة.

ولسورية والأصقاع المجاورة فضل آخر على الكنيسة الشرقية، هو إنماء ثروتها الفكرية بثقافة اللغة الآرامية السريانية، تلك الثقافة التي أنجبت أعلاماً من طراز افرهاط وأفرام ويعقوب. والقديس أفرام هو الإمام الأكبر للكنيسة السريانية، شرقيها وغربيها، فسّر الكتاب المقدس وألقى المواعظ ووضع الأناشيد إلى غير ذلك من الأعمال الروحية. ويقترن بذكره اسم ناسك آخر تضوّعت تقواه في الأقطار السورية هو القديس مارون أبو الطائفة المارونية.

وأخيراً نتوجه بأنظارنا إلى الكنيسة التي أصبحت بعد القرن الرابع مركز الدائرة من الكنائس الشرقية قاطبة أي كنيسة القسطنطينية. استظهر قسطنطين الكبير على أعدائه فاعتنق الدين المسيحي، وشاء أن تكون روما رأس المسيحية. فغادرها ليؤسس مدينة جديدة تصبح رمزاً للإمبراطورية الحديثة. فبنى القسطنطينية على ضفاف البوسفور، وانتقل إليها مع حاشيته. وكان لهذا الحدث خطورته في تاريخ الكنيسة الشرقية؛ إذ تحولت به نقطة الارتكاز الثقافية من الغرب إلى الشرق. كان قسطنطين يحاول أن يفصل الشؤون الروحية عن الشؤون المدنية على ما يقتضيه المذهب المسيحي. ولكن السلطة المدنية أخذت من بعده تفتات على حقوق السلطة الروحية مما أنزل أحيانا الكنيسة ورؤساءها منزلة التابع للإمبراطور البيزنطي، فأدى هذا الاغتصاب إلى اعتقاد أن الدين والجنسية قد توحدا، فعانت الكنيسة الشرقية — ولا تزال بعض أقسامها تعاني إلى اليوم — صعابا جمة من جراء هذا الاعتقاد الفاسد.

أصبحت القسطنطينية أعظم مدينة في الإمبراطورية ودعيت روما الثانية. فكما أصبحت خليفتها من الوجهة السياسية، حاولت شيئاً فشيئاً أن تصير أيضاً خليفتها أو على الأقل نظيرتها من الوجهة الروحية؛ فوفقت في ذلك بعض التوفيق إذ أصبحت في القرن الخامس إحدى البطريركيات الشرقية الأربع (وهي أورشليم وأنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية).

ولابد من الإشارة في هذا الصدد إلى النزاع الذي شجر بين الكنيسة الشرقية

والكنيسة الغربية فى القرن التاسع وأدى إلى انفصال الجزء الأكبر من الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية لأسباب لاهوتية فى معظمها — منها الخلاف على الإمامة الدينية التى أنكرها «الأرثوذكس» على بطريرك روما أى البابا. وعلى كل حال يجب الاعتراف بجلال الثقافة البيزنطية، وكان مصدرها كنيسة القسطنطينية. فقد عاشت هذه الكنيسة فى كنف الإمبراطورية أحد عشر قرنا (من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر) بثت فيها روح حضارة مكينة، لها مزاياها الفنية وخصائصها الأدبية والروحية. فهناك كنائس من الطراز البيزنطى قد انتشرت فى سورية وفلسطين ومصر. وهناك أدب بيزنطى متشعب الأطراف، حافل بألوان الفكر. وهناك تصوير بيزنطى تزكيه الروح الدينية البيزنطية. وهناك شرع محكم الوضع من وحى بيزنطى يرقى عهده إلى جوستينيان. وهناك موسيقا بيزنطية تتجلى إلى اليوم فى أناشيد القداس وسائر الترانيم الكنسية، وهناك على الأخص كنيسة شرقية بين ظهرانيها تعد سليلة الكنيسة البيزنطية. وقد احتفظت بلقب «الروم» لا تمسكا منها باللغة اليونانية — فكثير من الصلوات الآن تتلى بالعربية — ولكن إشارة إلى مصدرها واتصال طقسها وروحيتها بالكنيسة البيزنطية. إنه، والحق يقال، مما يثير العجب أن نرى فى القرن العشرين كنيسة مثل كنيسة «الروم» قد أصبحت عربية من حيث اللغة والمشارب والعقلية وهى تحتفظ مع ذلك فى غيرة فائقة بطقس مجيد عريق متشبع بالشرقية البيزنطية يردد فى نغمات ألحانه شعور الملايين من المؤمنين الذين استوطنوا الإسكندرية أو القسطنطينية أو ضفاف العاصى أو ربوع لبنان...

هذه لمحة سريعة لم نعرض فيها لاتصال الكنائس الشرقية بالعرب الفاتحين أو لنشاطها فى محيط الخلافة الإسلامية. وكان بودنا لو يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عن حالة الكنيسة الشرقية عند الفتح الإسلامى فى الشام ومصر، وعن آثار الكثيرين من أبنائها فى عصر الأمويين والعباسيين، ولا سيما من نقلوا العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية، وتوفروا على الأبحاث التاريخية. وخير ما نختتم به هذا العرض الموجز أن الكنيسة ولدت ونمت فى محيط رومانى، واستوحت الثقافة اليونانية وارتوت من منهل إسرائيل مع اهتدائها بالنور

الذى تشعه رسالة المسيح الفائقة الطبيعة . فهى فى قسميها الشرقى والغربى كنيسة واحدة تمت إلى أصل واحد وتستمد الحياة من مصدر واحد .

على أن كنيسة الشرق الأوسط صارت عربية بترعرعها فى بلاد عربية . وهى فوق تشبعها بالروح الشرقية والعقلية الشرقية مصرية فى مصر ولبنانية فى لبنان وسورية فى سورية وفلسطينية فى فلسطين ، ومن ثم كانت الوسيط الطبيعى للتفاهم بين هذه الأقطار الشرقية والبلاد الغربية على اختلاف ما يفرق الشرق والغرب من أساليب التفكير .

الأب قنواتى